

الأمن البشري والسلام في الأرض وفي السماء

محمد بهجة الأثري

كانت رحاب السماء منذ أول الدهر، مجال نظر إنسان الأرض وحاسته العاقلة المتفكرة... ينجذب إليها، فطرةً، متعجباً مشدوهاً، أو متفكراً في كُنه خلقها العجيب، وزينتها من الشمس والقمر والكواكب والنجوم، شاراتٍ وغارباتٍ في أفلاكها على تعاقب الأيام في نظام منسجم دقيق، متناغم ومتناسك، لا يقبل الخرق والالتئام.

يفترق بصره - أول شيء يفترقه منها - هذان النيران العظيمان، السابحان في فلكيهما فوقه، وهما يرسلان إلى البسيطة الأنوار والأضواء : هذا ناري يتلهب، وهذا ثلجي بارد ناعم، وكل يجري في فلكه الدوار غير متلاق بأخيه إلا نظرا وتلاحما من بعيد ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار﴾، وهما يتعاقبان على الأرض شروقاً وغروباً، فلا يغيب أحدهما عنها حاسراً ضوءه، حتى يشرق الآخر بنور ربه : يمدّه عليها مِداً... يبعد عنها وحشة الظلام، ويؤنسها ويؤنس ما عليها من إنسان وحيوان، فيبعث ذلك إلى نفسه الانبساط والانشراح، ويدعوه أن يزيد نظراً، وأن يتابع ببصره توابعها من الكواكب الزواهر في خارس

الليالي تطرّز آفاق السماء ونواحيها.. كأنها لآليء انتشرت من عقور الحسان على
 بساط الحرير أو المرمز المسنون، فيعلق بها ناظره مسحوراً، ويظل شاخصاً إليها
 ومتنقلاً معها حيث تنتقل في أبراجها ومنازلها. وتبلغ اللذة والمتعة الروحية أبعادها
 القصوى عند بعض حين يسمو روحه - بعد نظره - إلى التفكير في خالقها ومدبرها
 العظيم، جلّ وجلّت قدرته، ليتحد به تأملاً، ويستنزل منه الهداية : تهبط على قلبه
 من لدنه، وتلك هي عليا درجات السمو الروحي وهي حالة صفوة الصفوة من
 البشر، وهم الأنبياء والرسل ﴿قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنؤلّينك قبلةً
 ترضاها﴾.

هكذا كان انجذاب الإنسان إلى عوالم السماء، تأملاً فيها، وتسامياً إليها، وتلذّذاً
 بزينتها واتّحاداً بصفائها، وهي تُفيض عليه السكينة، وتمنحه الطمأنينة والصفو
 والأمن، ولكل امرئ نصيب من ذلك يأتيه على قدر حظّه من الروحانية والإدراك،
 وقدر شفوف نفسه ونازعتها إلى الجمال المطلق... يخفّف عنها كثافة المادّة وثقلها،
 ويريحها شيئاً ما من إرهاق الكدّ والكدح الذي يضيئه ويشقى به ثم لا يظفر من
 رحلة نصّبه إلا بالنزّر الشحيح من الجّداء، أو يرجع منها وهو ممّثو بالخبيّة
 والخسران.

وكم أوحى ملكوت السماء إلى الفلاسفة والشعراء والرسامين أن يستلهموا جماله
 وصفاءه، ليبدعوا من ذلك عوالم خاصّة بهم : يستمتعون بها ما عاشوا، ويمتعون
 الآخرين بما يصفون من معانيه وسموها، ومن صفائه وبراءته وخلوصه، وبما يرسمون
 ويحسدون من صورته وملاحمها الجميلة الملهمة.

وما عسى أن أذكر، فيما أذكر، من مبدعات الفلاسفة الأولين فيما اهتمت إليه عقولهم
 - من تعلقها بملكوت السماء - من ابتكار هذا العلم : علم الفلك العجيب الذي بلغ

غاية الروعة في تصوراتهِ الصحيحة، وفي إثارتِهِ لأعمق الأحاسيس بعظم خالقه وجلاله، وبالرغبة في الاتحاد بذلك الصفاء والاستمتاع به.

وكذلك مُبدعات الشعراء من كل أمة فيما أحسوه من هذا الصفاء في ملكوت السماء، فوصفوه وافتنوا بما وصفوا وفتنوا، وأفاضوا الأمن والدعة والسكينة على الأرواح. ولشعراء العرب القِدْحُ المُعلَى في هذا الشأن.. ذلك بما تميّزت به سماء بلادهم من التبرّج الدائم للعيون بالصحو والصفو والحسن، وبما رزقه أهلها، والشعراء منهم خاصة، من رهافة الحسّ وسرعة التأثر بما يروق ويشوق، ومعها بلاغة البيان، وهما يخلقان عرائس الأشعار، وكَم لبّاداتهم ومتحضّريهم من روائع تحبب إلى النفوس أن تتحد بالجمال وتطلب السكينة والصفاء. وللرسامين من كل أمة وملة اقتتان بالسماء وتعلّق بها شديد، ولا عجب إذ الفنّ الرفيع غايته ارتياد الجمال والصفاء وتثليها وتجليها، وليس كالسماء ما يتوافر فيه من ذلك. وقد مثلوها فيما صنّفوا من الروائع والبدائع نحتاً في الصخور، ورسماً على الورق لكل تفاصيلها يكاد يريك منها كل شيء وكأنه ينطق أو يتهامس، كالذي صنع الفلكيون من بنائها في الزمن الأخير وتجسيدهم الكواكب والنجوم شارقاتٍ وغارباتٍ وكأنها تتغازل وتتداعى إلى المحبة والامتزاج في وئام وصفاء دائن. وقد كان السبق في هذا الشأن الجميل للعرب في المائة الثالثة الهجرية (9م)، وكان مبدعه الأول الرسام الفلكي المخترع عباس بن فرناس القرطبي الأندلسي المتوفى سنة 274 هـ (887م) وقد مثل في بيته القبة الزرقاء بنجومها وغيومها وبروقها، فأبدع في ذلك ما شاء له الإبداع.

وندع هذا إلى ذكر ما هو أعلى وأغلى، وأشدّ صلة بالسماء وتفاعلاً روحياً مع صفائها وأمنها ودعتها، وأريد الكتب المنزلة المقدسة وما حفلت به من هذا الأمر العظيم، وآخرها هذا القرآن الكريم... فإن له عن السماء ومع السماء أنباء وأحاديث تتسامى بالإنسان إلى عالم الصفاء والمحبة، وحَدَّثُ عن البحر ولا حرج ! ومن عايش آياته المستفيضة في شأنها تأملاً واستغراقاً، علم كيف يتسرب منها إلى فؤاده الصفاء والأمان والسلام، وهذه الخلال هي غاية ما يطلب الإنسان أن تنعم به نفسه في حياته.

وكم تمنى الإنسان منذ القدم وهو يرى الطيور تسبح فوقه في الجواء دانيّة وقاصيّة، لو أنه استطاع أن يطير مثلها إلى حيث يشاء، ويعلّو في أجواز السماء حيث الصفاء بعيداً بعيداً عن كدر الأرض.

إن الأساطير القديمة تشير إلى أفراد من البشر قد حاولوا الطيران في سالف الزمان، وكثير منها دارت حوادثها حول الطيران وأشهر ما علمناه من ذلك الأسطورة اليونانية التي تحدّثت عن محاولة (ديدالس) و (إيكاروس) الطيران باستعمال أجنحة من الريش الطويلة مثبتة بالشمع.

وفي أدبنا العربي القديم، ولندع الأدب الحديث الآن، نجد أشياء من نوازع النفوس العربية إلى الطيران والتحليق في الجواء.. وَمَنْ مِنَّا يجهلُ الشاعر القديم، وقد رأى سرب القطا في لُوح السماء، فسأله أن يعيره جناحاً منه ليطير إلى مَنْ أَحَبَّ... فهتف به :

أَسِرْبَ الْقَطَا ! هَلْ مِنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ ؟ لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أُطِيرُ !

ولنبق إلى آخر حديثنا على ذُكر من غايته هذه من الطيران، وهي وصال الحبيب وما في هذا الوصال من الدّعة والأمن والسلام، وهي هيَ غاية العربي وَمَنْ يدين بدينه من البشر في كل زمان وكل مكان.

وما وقف العرب من بعدُ عند التّمنى هذا فحسب، بل أرادوا الخروج به من حيّزه إلى حيّز العمل والتنفيذ لأول استبحارهم في المادّيّات، فظهر إِبّان المئة الثالثة الهجرية (9م) في شرقي العالم الإسلامي وغربيّه من حاولوا الطيران وشرعوا فيه، وألقوا في روع البشر إمكان تحقيقه.

فكان في الشّرق إسماعيل بن حماد الجوهري مؤلّف معجم الصّحاح المشهور أوّل من حاول اختراق الجو وأول من مات في سبيله... صنع جناحين من خشب وربطهما بثجانه، وصعد سطح داره أو المسجد في نيسابور ونادى في الناس : لقد صنعت ما لم

أسبق إليه، وسأطير الساعة. فازدحم أهل نيسابور، ينظرون إليه، فنهض بجناحيه، فخانته اختراعه، فسقط إلى الأرض صريعاً.

وكان غريب العالم الإسلامي، في الأندلس، أبو القاسم عباس بن فرناس الفيلسوف الشاعر والفلكي الرسّام والمخترع، من أهل قرطبة ومن موالي بني أمية... كَسَا جثثانه الريش ومدّ له جناحين طار بهما في الجوّ مسافة بعيدة، ثم سقط، فتأذى ظهره، لأنّه لم يعمل له ذيلًا، وغاب عن فكره أنّ الطائر إنّما يقع على زِمَكِّه. ولذلك قَصَرَ عن الشأو البعيد، وذلك شأن كل بداية.

وقد كان حريّاً بالعالم الإسلامي، وقد حقّق أحد أفراده النابهين الطيران لأول مرّة في تاريخ البشر، أن يتبع تجربته بتجارب جديدة تمضي به إلى مداه.. ولكن صرفه عنه وعن أمثاله هذا النزاع السياسي بين ملوكه وطوائفه في الداخل، وما توالى عليه من الخارج من الغارات المدمّرة من الشرق ومن الغرب، وقد شقّي بها عصوراً طويلاً، ولم تعطه فسحة من الرخاء، ونهزة من السلام والصفاء، ينصرف فيها إلى مواصلة ما بدأه من خير للبشر في هذا الشأن وغيره.

وما فات العالم الإسلامي من ذلك، قُدّر لغيره بعد عصور أن يفكر فيه، ويجد في تحقيقه خلال أزمنة متطاولة لم يكفّ فيها عن التفكير والعمل حتى توصّل إلى ما أراد.

وقد بدت ظاهرة التفكير في الطيران عند الأوربيين في أواسط المئة الثالثة عشرة للميلاد منذ اقترح العالم الإنكليزي روجر بيكن المتوفى سنة 1294م - وقد كان على صلة بالعرب - بناء الآلة الطائرة، ووقف الأمر عند هذا الحدّ أواخر المئة الخامسة عشرة فيما بلغه علّمي، حيث قام المهندس الإيطالي ليوناردو دافينسي المتوفى سنة 1511م ببحوث علمية في الطيران، فا نتقل الأمر من التخيل إلى الدرس والتجربة

على يد هذا العالم الميكانيكي الإيطالي، وقَفَى على آثاره رجل آخر من إيطالية بعد دهر داهر، في الربع الأخير من المئة الثامنة عشرة، ذلك هو الكونت فرانسيسكو زامبيكاري، فحقّق تجربة سلفه بالعمل، وصنّع (المنطاد) وقام في سنة 1383م بأول رحلة به في إنكلترة. وجاءت المئة التاسعة عشرة وَهَمُّ القوم أن يتوصلوا إلى معرفة الأسس التي تؤدي إلى الطيران بآلات يثقل وزنها عن وزن الهواء ووضع القوانين التي تحكمه فقدم العالم الإنكليزي جورج كايلى بحثاً في التحليل الميكانيكي للطيران في عام 1809م، ثم كتب المهندس الميكانيكي الألماني أوتوليلينشال (1848 - 1896م) بعده بزمن مديد أبحاثاً في كيفية استخدام الطائرات الأثقل من الهواء، وواكب ذلك تصميم الطائرات فصمت طائرة وحيدة الجناح في عام 1842م، وصنّع نموذج الطائرة ذات محركات، وفي نحو عام 1866م أدخلت تعديلات على هذا النموذج، وصممت في فرنسا طائرة مائية وحيدة الجناح في عام 1878م. وما كادت المائة التاسعة عشرة تنصرم حتى طار المهندس كلينت أدر في عام 1890م بطائرة صنعها على شكل خفاش، وصنع الإنكليز طائرة تديرها آلة بخارية تحمل ثلاثة ملاحين ولوازمهم، وحلّقت في الجو في عام 1894م، وكانت أمريكية فيما وراء المحيط تلاحظ الجهود الأوربي في الطيران خلال المئة التاسعة عشرة، فبادرت إلى أخذ الزمام باليمين : فصنعت أول طائرة بحركّ بخاري كالذي صنع الإنكليز، واستخدمتها في عام 1896م، واستعلق الأخوان الأمريكيان أورفيل رايت (1871 - 1948م) وويلبر رايت (1867 - 1912) ببحوث أوتوليلينشال المهندس الميكانيكي الألماني في كيفية استخدام الطائرة الأثقل وزناً من وزن الهواء، فأدخلا على تصميم الطائرة الشراعية إصلاحاً، وصمّم أورفيل محركاتها وتمّت له أول رحلة بها في كيتي هوك بكارولينا الشمالية في 17 كانون الأول 1903م، وعني صمويل بيرونوت لانجلي (1834 - 1906م) أحد رواد دراسات ميكانيكا الطيران وتجارب الطيران في أمريكة بصنع نماذج طيارات صغيرة واستطاع إطلاقها بنجاح، هنا بادرت (الإدارة الحربية) في عام 1903م إلى احتوائه، وطلبت منه أن يطلق طائرة كبيرة وأمدته بالمال، ففعل، غير أنه لم ينجح في إطلاقها، فأعاد تصميمها في عام

1913م (السنة الأولى من سني الحرب العالمية الأولى) فأطلقت. ونجحت فرنسا في ميدان الطيران بما صنع لها المحترم لويس بليريو (1872 - 1936م) من الطائرة ذات السطح (مونويلين) وقد قام بتجارب عدة قطع بها مسافات قصيرة، واستطاع أن يعبر بها القناة الإنكليزية في عام 1909م. وهذا النوع من الطائرات هو أول ما وقعت عليه أبصارنا منها ونحن أطفال في عام 1917م حيث استخدمها الجيش البريطاني في العراق، وهو يتقدم بغزوه نحو (بغداد)، فأطار أربعة منها في سائها وألقت كل واحدة منها قنبلة على موقع من مواقع الحكم في المدينة، فأخطأت الأربع ولم تنفجر قنابلها، لكنها كانت شيئاً غريباً على الناس يطلّ عليهم من الجو ويثير الرعب والفزع في نفوس الأهليين الوادعين على ضفاف (وادي السلام) الرقراق، وقد كانوا في حاضرتهم (مدينة السلام)، ومثلهم الأناسي في بقاع الأرض، يتسامعون بتحقيق طيران الإنسان، ويأتيهم القليل من أنبائه فيطربون له ويسرّون، ويحملون أن يكون لهم يوماً ما نصيب من الاستمتاع بالتحليق في الجو والانتقال السريع إلى حيث يشاؤون، ليصلوا آصرتهم بالأمر والشعوب، ويوثقوا الروابط الإنسانية، ويحققوا تبادل المنافع في صفاء ووئام.. إذا بهم يفاجؤون من هذا الطيران بالصواعق تتساقط على رؤوسهم، فيرون منه وجهة القبيح المفرع من قبل أن يريهم وجهه الآخر السمع الجميل المؤنس. وليس هذا ما أرادته أولئك الذين أنفقوا أعمارهم وأموالهم سعياً وراء تحقيق هذا الحلم الجميل، وقد وفقوا له بعد عصور طوال وجهود مضنية، وإنما أرادوا هذا الوجه الآخر منه، وقصدوا توفير المتعة الروحية به والوصول إلى محابّ النفوس، لا المكارة التي تخشاها، على نحو ما تمنى الشاعر العربي القديم حين سأل سرب القطا أن يعيره جناحاً منه رجاء أن يطير إلى الحبيب، وما أحلاها من أمنية ! ولا إخالهم فكروا في غير هذه المحابّ أو أرادوا غير تيسير المنافع للإنسان.. ولكن خرج الأمر من سلطانهم، وتعاورته النوازع وهي شتى فسيرته بما تقضي به مصالحها وآراها، وتنازعها منها الخير بتغليبها والتكين لها، والأخرى سمجة مشنوءة يجب الحدّ من طغواها. وكلاً هذين الوجهين من الخير والشرّ قد خامر عالم الطيران،

ودخل في قبضة المنافع الاقتصادية والتجارية والمصالح السياسية والعسكرية للدول التوسعية خاصة منذ أن مَوَّلَت الإدارة الحربية الأمريكية في عام 1903 صمويل بيریونت لانجلي صُنْعَ طائرته وتطويرها كما أسلفتُ خبره، ثم مضت به كل دولة صناعية مقدرة إلى غايته، وجعلت له الشأن الأول بين شؤونها وهومها، وصعدته تصعيداً محموماً مع تصاعد الصناعات التقنية ومخترعاتها العجيبة جنباً إلى جنب، وغذته من الأموال بما تعجز قدرة الحاسوب «الكومبيوتر» عن إدراكه وضبطه، وكلما بلغت به إحداها مبلغاً من التطوير نافستها الأخرى فيها وجاءتها بأروع وأفضل منه لتدفع به ضرّها، أو لتتحداها وتروّعها، أو لتتغلب به في الحروب على عدوها الذي ينازلها بكل أثقاله من هذا وغيره. ولما نشبت الحرب العالمية الثانية في أيلول 1939م، كانت أمريكا دائبة على تطوير طيرانها وإيجاد القنبلة الذرية، وطال أمدُ الحرب بين الدول المتصارعة سنين عدداً من غير أن تحقّق أيّ منها نصراً لنفسها، فلم يحسمها إلا طيرانها باللقاء على كل من المدينتين اليابانيتين. هيروشيما وناكازاكي، قنبلةً ذريةً صيرتها أثراً بعد عين.. غالت حياة الملايين من الإنسان والحيوان، ومحت كل ما فيها من أخضر ويابس، وترك هذا التفجير النووي خلفه إشعاعاً ذرياً هناك يفتك في الأحياء حوالي نواحيها إلى هذا اليوم.

هذا الحدث الخطير، الفريد في الإفناء الجماعي خطفاً كالمح بالصبر.. أحدث هزةً ألم لا أعظم ولا أعمق منه في ضمير العالم الإنساني ما بين المشرق والمغرب وجعل الإنسان إذ ينظر إلى السماء ترتعد فرائضه رعباً وإن كانت مصحبة صافية تضحك له، مخافة أن يغوله من جهتها وهو غافل ما غال سكان المدينتين اليابانيتين الآمنتين وقلب أسس النظام الدولي، ودفع «السوفييت» حلفاء «الأمريكان» وشركاءهم في هذا الانتصار على «دول المحور»⁽¹⁾ إلى التعجيل في امتلاك هذا السلاح الرهيب وتطوير

(1) ألمانية وإيطاليا واليابان.

الطيران، وإيجاد الطاقة الخارقة التي يتحرّر بدفعها من جاذبية الأرض وينفذ بها من الغلاف المغناطيسي الذي يغلف كوكبنا إلى الفضاء الخارجي... يقيمون فيه محطات دائمة مشحونة بأسلحة ليزر وغيرها من وسائل التدمير الشامل تحقيقاً للهيمنة من ثم على جملة الأرض، إذ استقرّ في فكر القادة السياسيين والعسكريين عند الفريقين أن الفضاء صار هو المجال الحاسم في الزمان الحاضر، فمن ملكه كان قادراً أن يقرّر مسار الأحداث في الأرض، وأصبح هذا الفكر عند قادة (السوفييت والأمريكان) جميعاً هو محور السياسة الدولية في العالم، فذهب كل فريق يغالب الآخر في مضمار التنافس في امتلاك الأسلحة الذرية وتطوير الطيران الذي يحملها ويقذفها حيث يشاء على من يشاء، وخلق وسائل أقوى ممّا عند غيره تخدم غاياته السياسية والعسكرية. وعجّل «السوفييت» من فورهم على أثر وقوف رحى الحرب في عام 1945 برنامج القنبلة الذرية، وصنعوها... فصنع «الأمريكان» القنبلة الهدروجينية بعد عام 1954... فسارع «السوفييت» فأوجدوا الصاروخ عابر القارات في 1957، وأتبعوا هذا التحوّل النوعي المفاجئ في سباق التسلح وتطويره وتنويعه بالقمر الصناعي (سبوتنيك الأول) «Sputnik 1» محمولاً على هذا الصاروخ الجبار متحرراً به من جاذبية الأرض ومخترقاً غلافها إلى أجواز الفضاء.

تمّت هذه الخارقة لأول مرّة في تاريخ البشر في اليوم الرابع من تشرين الأول (أكتوبر) 1957، فكان هذا اليوم مولد (عمر الفضاء) على يد «السوفييت» وإن شاع أنّ هذه الخارقة التاريخية هي من منجزات العلماء الألمان الذين أسرهم «السوفييت» إبّان الحرب العالمية الثانية، أو من إنتاج أعمال التجسس، أو صنع العبقريات الفردية، تهوينا لشأن «السوفييت»، وتسكيناً للشعب الأمريكي الذي أفزعه هذا السبق السوفييتي في التوجّه نحو الفضاء الخارجي، وأحدث عنده هزة عنيفة وأثر في تصورات السياسة والعسكرية، وأشعره بضمور هيئته وتقلّص نفوذه، وقد كانت «الحرب الباردة» بين «السوفييت» و «الأمريكان» على أشدها في تلك الأيام. وكان معظم نشاط «الأمريكان» إذ ذاك منصرفاً إلى الملاحاة الجوية دون الفضاء، وما كان

ليدور في خلدھم أنَّ «السوفييت» الذين بهم نجوا من السقوط تحت أقدام الألمان يقدرّون يوماً مّا أن يكون لهم هذا الظهور والتفوق السريع في مجال الفضاء... فسارعوا إلى تطوير برنامج الفضاء العلمي وتلافي نقصه، فأدركوا الغاية سريعاً، وأطلقوا في 31 كانون الثاني (يناير 1958) أول قمر صناعي لهم في مدار حول الأرض، وذلك هو (أكسپلورر الأول) «Explorar 1» (الكاشف)، وأنشؤوا محطّات المتابعة «Trackings» في عددٍ من الأقطار حول الأرض، وبنوا شبكات الاتصال، وأطلقوا عشرات من الأقمار تكشف الفضاء القريب من الأرض، وتدرس الغلاف الجوي... ولم يعلوا بما وفّقوا له من ذلك إلى أبعد من هذا المدى.. وإذا بالسوفييت يفاجؤونهم والعالم كلّهُ في الثاني عشر من نيسان (أبريل) 1961 بإرسال أول إنسان منهم إلى الفضاء الخارجي، هو (يوري غاغارين) «Uri Gagarin» على القمر الصناعي (فوستك الأول) «Vostok 1» ظلّ فيه تسعاً وثمانين دقيقة في حالة «انعدام الوزن»، وبلغ طيرانه أربعين ألف كيلومتر حول الأرض، وكانت زنة هذا القمر 4,730 كيلو غراماً.. فسارع «الأمريكان» فأرسلوا في الخامس من أيار (مايو) 1961 أول إنسان أمريكي إلى الفضاء، هو (الآن ب. شپرد) «Alain B. Sheperd» على القمر الصناعي (مركوري) «Mercury» (عطارد) فقصر عن شأو (فوستوك الأول السوفييتي)، إذ لم يبق في الجوّ إلاّ خمس عشر دقيقة، وسقط في البحر فالتقط منه، وكانت زنته 953 كيلو غراماً، أي أقل وزناً من (فوستوك الأول) 3,767 كيلو غراماً، ولم يتجاوز طيرانه 487 كيلو متراً في الجوّ، على حين بلغ (يوري غاغارين) أربعين ألف كيلو متر. فارتاع الشعب الأمريكي من هذا التخلف عن «السوفييت» وذعر ذعراً شديداً، فبادر الرئيس (جون ف. كندي) «John F. Kennedy» إلى طمأنته بأن تفوّق حكومته على «السوفييت» في مجال الفضاء سيتحقّق لا محالة قريباً، واعدأ إياه بإنزال أفراد منه على سطح (القمر) في غضون عقد واحد من السنين، وفي اليوم الثالث من كانون الثاني (يناير) 1962 أعلنت الحكومة الأمريكية برنامجاً فضائياً هو (جيميني) «Gemini» (التوأمان) يحمل إنسانين إلى الفضاء الخارجي، ثمّ يعقبه بعد نجاحه برنامج

(أبولو) «Apollo» الفخم الذي يعدونه لغزو القمر والنزول عليه، وأجروا عشرات التجارب بأقمار (جيميني) تَعَوَّدَ بها رواد الفضاء الحياة خارج غلاف كوكب الأرض، وأفادوا معرفة العلم به وبكواكب المجموعة الشمسية. فلَمَّا تَمَّتْ لهم التجربة ووثقوا منها، أطلقوا مركبة منها إلى القمر وقد أركبوها ثلاثة روادَ مدربين، غير أنها احترقت وهي على منصّة الإطلاق قبل أن ترتفع إلى طبقات الجوِّ، وقد بلغت تكاليفها خمسين مليون دولاراً، فكانت الصدمة الشديدة بالغة التأثير في نفوس الشعب الأمريكي وحكومته، لا من خسارة الرواد الثلاثة المدربين والخمسين مليون دولار فحسب، ولكن من الإخفاق الذي مُنوا به بعد الجهود المضنية التي بذلوها في هذا السبيل أيضاً، وهذا أهمُّ عندهم بكثير، على أَنَّهُ شحذ عزيمتهم لَأَن يعاودوا التجارب وإصلاح الخلل، ليحققوا هذا المقصد الأول للسياسة الأمريكية، فما مضى عام ونصف حتى أفلحوا فأطلقوا في اليوم الحادي والعشرين من كانون الأول (دجنبر) 1968 سفينة إلى الفضاء بنجاح تامٍّ تحمل ثلاثة رواد كانوا أوَّل من انفكَّ من البشر من جاذبية الأرض، فداروا بها حول القمر، وأبصروا لأول مرة ظهره المجهول عند البشر، غير أنهم لم ينزلوا على سطحه. وفي اليوم العشرين من تموز (يونيو) 1969 أتى العلم المتقدم والارتقاء التقني بالخارقة الكبرى التي وعد الرئيس الأمريكي (كندي) «John F. Kennedy» شعبه بالوصول إليها في غضون أقلَّ من عشرة أعوام كما أسلفت، وصيرت حلم البشر بالطيران البعيد من عهد آدام واقِعاً عملياً، والخرافة حقيقة.

انطلقت السفينة الفضائية (أبولو) «Apollo» في هذا اليوم إلى (القمر) تُغِذُّ السير بسرعة إليه في طبقات الجوّ صعداً أفقاً من بعد أفق حتى بلغت فهبطت عليه بسلام آمن، ونزل منها رائدها (نيل أرمسترونغ «Neil Armstrong» وصاحبه (ادوين ألدرين) «Edwin Aldrin» وخمسة سكاّن كوكب الأرض يشاهدونها في (الإذاعة المرئية) يسيران على سطح القمر متألّقين، ويرفعان عليه العلم الأمريكي إيذاناً بتفوق الأمريكان على السوفييت في مجال الفضاء، وزهواً ببلوغ هذه الغاية المثلى، وإشعاراً

للشعر بيعثهم إلى ملك الفضاء والقمر حيث يستطيعون الهيمنة منها على الأرض، ويتحكمون في مسار الأحداث فيها. وها هو ذا (مِسترنيل أرمسترونغ) جالساً الآن إلى يميني في هذه الندوة العلمية⁽²⁾ بمعية شبيبته وبشاشة حيّاه الطلق ووداعته، بعد أربعة عشر عاماً من هبوطه على القمر.. يشاركنا الرأي في الدعوة إلى الأمن البشري والسلام في الأرض وفي السماء... وما أشوقنا إلى سماعه يتحدث لنا بما شاهد من آيات الله الكبرى، ونعم به في رحلته الموقفة العجيبة من المتعة التي لم تقدر للإنسي قبله !

ثم جاء بعده وبعد صاحبه (أروين ألدرين) من الأمريكان من واصلوا الاتصال بالقمر، فنزل عليه إثنا عشر رائداً وعادوا منه إلى الأرض بمقادير كبيرة من مواده يقول العلماء إن دراستها تستغرق عشرات من السنين.

وما وقف القوم عند (القمر) وحده، فأوغلوا في ملكوت السماء، وعلوا صعداً نحو فلك (المريخ) «Mars» ثم إلى (المشتري) «Jupiter» أكبر كواكب المجموعة الشمسية، واندفاعاً من ثم إلى الفضاء غير المتناهي... إلى (الزهرة) «Venus» و (عطارد) «Mercury» أقرب كوكب في المجموعة الشمسية إلى الشمس... بحثاً عن أشياء في عوالم السماء يبعثون معرفتها والإفادة منها، واختباراً لقدرة الإنسان في تحمل إقامة طويلة في الفضاء الخارجي. ودرساً لإمكانية بناء نظام للنقل في الفضاء : نقل البشر إلى كواكب المجموعة الشمسية ونقل المواد التي يحتاج إليها الإنسان من الأرض إلى خارج غلاف الأرض المغناطيسي... والذي برز واضحاً إلى اليوم من مقاصد هذا الجهد الفضائي الهائل إنما هو درس إمكانية إقامة محطة فضائية، وإقامة قاعدة دائمة على سطح القمر للأغراض الحربية خاصة، وما حدث (غزو الفضاء) هذا إلا من الفكر الحربي، ولولا ما كان يكون منه شيء ولا ريب. فأيدي مراكز القوى العسكرية في الجانبين هي

(2) الندوة العلمية لأكاديمية المملكة المغربية - الدار البيضاء 27 جادى الأولى - 1 جادى الثانية 1404،

التي تدفع إليه وتواصل دفعه دوماً، وتشجع عليه، وتيسره تصعيداً يوماً بعد يوم لتصل به إلى غايته، وكلُّ يحاول أن يكون هو السابق إلى إحراز التفوق في هذا المجال. وكل ما يقال عن دوافع (غزو الفضاء) خلاف هذا المقصد، من درس إمكانية الاستفادة اقتصادياً وتجارياً وطبيياً من استغلال الفضاء، ومحاولة إسكان البشر في الأجرام السماوية.. لا يخلو من قصد التعمية لإخفاء هذه النية عن السواد الأعظم، أو الرأي العام، الذي أفزعه الفكر الحربي في هذا الاندفاع إلى الفضاء، وثار عليه حذراً من عواقبه الوخيمة على جملة البشر.

والشواهد على هذا كثيرة، وهي تتجلى بوضوح في استمرار الدولتين العظيمتين على هذا النهج، كحقيقة ثابتة عندهما، وفي حرص كلٍّ منها على إحراز قصب السبق والتفوق في المجالين معاً: مجال السلاح النووي، ومجال الفضاء الذي يحمل هذا السلاح الرهيب، وما فتئ ما ضيتين في هذه السبيل بكل عزم وتصميم لا تفتران عنه، وفي نفس كلٍّ منها أن تكون بذلك هي المتفردة في توجيه السياسة والاقتصاد في الأرض، وهي وحدها صاحبة السلطان المطلق الذي لا يغالب ولا يغلب، وسبيلها إلى ذلك هو امتلاك ناحية الفضاء وهذا السلاح الرهيب معه.

وكل محاولة للتفاهم من أجل الحدّ من هذه النزعة عند الجانبين، ما برحت على امتداد الزمان، تبوء بالخيبة دائماً.

وإن أنسَ لا أنسَ اجتماعاً فيما مضى لزعميي الدولتين العظيمتين المتنافستين والمحترقتين في «الحرب الباردة» إذا جاز التعبير، إلتقيا ليتفاوضا في نزع السلاح، وإحلال الوئام محلّ الخصام، فلمَّح الأقوى لصاحبه قاصداً إنزاله على إرادته، بأنه يملك من السلاح الذري ما يحو به وجه الأرض كلَّ الأرض مرتين !! وكان نِدُّه صاحب نادرة وتهكم

وغرور عظيم أيضاً، فضحك وقهقه وقال له على البديهة : يا عزيزي ! يكفيك أن تحو الأرض كل الأرض مرة واحدة، فما حاجتك أن تحوها مرة أخرى وأنت لم تبقي على شيء في الأولى ؟!

هذا الفكر لبث هو المسيطر في رؤوس قادة الدولتين العظمتين إلى اليوم، ولست أدري متى يتلاشى منها... فهذا أناذا اليوم وأنا أكتب هذا الكلام أسمع من الإذاعة تصريحاً للحكومة الأمريكية بأنّ اتفاقية الحدّ من الأسلحة التي عقدها مع السوفييت لا يفيد الأمن العالمي مقدار أنملة ما لم تتقيّد بالتزام بنودها، وامثالها الدقيق لأحكامها...، يحيى هذا التصريح الخطير في آخر سلسلة الاتفاقيات الدولية : منذ القرن التاسع عشر إلى يوم الناس هذا، فإننا نجد كلّ اتفاقية تبرم يعقبها نقص، وتكون حرب باردة، أو حرب ساخنة... وناهيك بما أدّت إليه هذه المواقف الدولية الرجراجة، أو الهدن على دخن تنطوي عليه الضلوع من نشوب حربين عالميتين خلال هذا القرن العشرين الميلادي لم يشهد عالم الأرض شرواها في الشراسة والتدمير، وما أعقبت كلّ منها على مدى ستين عاماً خلت من ثورات وحروب متعاقبة في كلّ مكان، زعزعت بناء المجتمعات الإنسانية، وأتت على القيم الأخلاقية هدماً وإفساداً، وأشاعت البؤس والفقر بعد الغنى والرفاهية، والعنف والسّطو والاعتصاب والإرهاب حتى كأنّ الإنسان قد مسخ وحشاً ضارياً، قانونه معدته.. بل أصبحت هذه النازعة عند دوله التي تحكمه هي قانونها العامّ، كما يبدو ذلك في تصعيدها الرهيب للتسليح النووي في البرّ والبحر والفضاء، وفي قيّام هذا الجدار الهائل بينها من انعدام الثقة وتربّص كلّ منها بالأخرى وتبويها لمفاجأتها بالضربة الماحقة. وقد انتشرت هذه النّازعة النفسية الرهيبة عند الدول العظمى بعد دخولها (عصر الفضاء) خاصّة على نحو لم يعرف له نظير من قبل. ومن هنا عمّ البشر الخوف من أخذه بالقارعة على حين غرّة، وداخل الذعر القلوب وبات كل إنسان يتوقّع في كل لحظات زمنه انفلات الزّمام من يد العقل في بعض حالات غضبه فتحدث نهاية الحضارة والإنسان على الأرض بصنع الحضارة وإنسانها نفسه.

لقد أحدث (عصر الفضاء) تغييرات جذرية في جملة الحياة المعاصرة، وفي طبيعتها كما يلاحظ المحللون المتعمقون في الدراسات البشرية أربعة معالم، هي :

- (1) السياسات الدولية.
- (2) الدور السياسي الذي يضطلع به العلم والعلماء.
- (3) العلاقة بين الدول والتحول التقني (التكنولوجي).
- (4) الثقافة والقيم السياسية لدى الأمم ذات التقنية المتقدمة.

وهذه كلها تغييرات لم يكن بدّ من حدوثها، نشأت في الأصل من طبيعة التطور العقلي والتقدم العلمي المستمر، وكانت تعبيراً حضارياً في سلسلة جهد الإنسان المتواصل منذ أقدم الحضارات.

ومن شأن هذه التغييرات في التصور العلمي الإنساني السليم أن تحدث تغييرات نظائرها في :

- (1) القانون العام الذي يحكم جملة البشر بالعدل.
- (2) في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أجناس البشر على أساس الفضائل والتقوى والخلق الكريم.
- (3) في تنظيم الاقتصاد العالمي... تخلصه من هيمنة نوازع السلب والنهب والاعتصاب، ومن التلاعب بجملة منافع البشر.

هذه الأمنيات ونحوها، هي عصب الحياة الإنسانية الكريمة، ومتطلبات البشر من كل جنس ولون ودين ومذهب في بسيط الأرض كلّها ما بين مشرق للشمس ومغرب... وهي تبدو صعبة التحقيق بل متعذّرتها، من منظور الواقع الدولي

النفسي، الذي يستعمل القوّة والتهديد بها في حلّ المشكلات، وهو توجه في جملته برهنت سلسلة أحداث التاريخ البشري على خطئه وخطله، فالشرّ يدعو إلى الشرّ ويجرّ إلى تسلسله ولا يحسم أمراً.

وهنا تتجلى ضرورة تغيير ما بالنفوس، والتخلي عن هذا الواقع الجهم إلى التحلي بالصفات الإنسانية، وتقويم الطباع وتصفية الضمائر وإخلاص النيات (وإنما الأعمال بالنيات) كما قال محمد رسول الله إلى الناس، تمهيداً لدخول الدول في السلم كافة، وإقامة علاقاتها على (قاعدة الخلق) فذلك هو الطريق إلى حلّ المشكلات الدولية والإنسانية وهو الذي يستأصل الشر وبواعثه، وليست أشعة ليزر تسلّط على البشر الوداع من آفاق السماء، من قاعدة القمر، أو من سفينة الفضاء.

لقد سبقت الأديان السماوية كلّها فدعت إلى السلم وإلى اتخاذ الأخلاق أصلاً للتعامل الإنساني، وأزر بعضها بعضاً في الدعوة إلى ذلك والحضّ عليه واستعلن خاصة في الإسلام، خاتمة الرسالات في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾.

وعلى هذا انعقد إجماع العقلاء والمفكرين في كلّ مكان وكلّ زمان، فلا مندوحة للعقول العسكرية المتغترسة من الانسلاخ من نوازعها واتباع سبيل السلام كما يهوى البشر ليأمن ويطمئن ويسلم.

ويعجبني تشبيه مفكر من الغربيين نازعة استعمال القوّة في حلّ المشكلات بمحاولة سائح من إحدى الدول العظيمة أن يجعل لغته «...» مفهومةً لسامعيه برفع صوته بصورة مستمرة بعد (سبوتك الأول).

كما يعجبني جدًا قول (ورنهر فون براون) مؤسس كنيسة لوثرية في هنش فيل في ألاباما، وهو يذكر ويحذر - كما يروي عنه (والتر ماكدونال) «إنَّ على الإنسان أن يرفع مستواه الأخلاقي وإلا هلك»، وقد كان (ورنهر فون براون) يطالب بنظام قويم جديد يتسامى «على مستوى القدرة التقنية والمادية الأمريكية القديمة».

وذلك هو فكرنا - نحن العرب والمسلمين الحقيقيين خاصة منذ وُجدنا، وصميم نازعتنا الثابتة والدائمة إلى تحقيق الخير المطلق والأمن المستقر للإنسانية جمعاء، تحت راية السلم، تظلّل الإخاء البشري في كل مكان وكل زمان.

